مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 125- 135

جهود مصطفى صادق الرافعي في بيان الإعجاز القرآني

Mustafa sadek rafii efforts to clarity the Quran miracles

عزيزو ياسين[1] قلايلية العربي[2]
abdelghaffarbenamia@gmail.com azizou.yacine83@gmail.com
جامعة أحمد بن بلة - وهران 1 / الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/08/16 تاريخ القبول: 2020/01/17 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص البحث

أقر الباحثون في الدراسات القرآنية – قديما وحديثا – بتعدد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، متوسلين اصطلاحات ومفاهيم عصورهم، وهذا ما درج عليه "مصطفى صادق الرافعي" في بيان وجوه الإعجاز، حيث أوضح أنَّ فيها الإعجاز التاريخي والاستراتيجي والعلمي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاق والأدبي...الخ، حيث أشار إلى هذه الأنواع في كتابه: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية". فاعتبر الرافعي هذه الوجوه معجزة على العموم لأنها لم تكن أصيلة وفاصلة في قضية الإعجاز خاصة في فترة التنزيل، وإنما الوجه المعجز على الحقيقة – بحسبه – هو: *"الإعجاز البياني"*.

كلمات مفتاحية: مصطفى صادق الرافعي، الإعجاز، القرآن الكريم، إعجاز القرآن الكريم.

ABSTRACT:

In The Quranic studies, The schoqrs have acknowledged the many facets of miracles in the Holy Quran, and they have adopted the conceted and concepts of their times, This is what Mustafa Sadeq Al-Rafii said in the statement of the faces of miracles, He explained that the historical, strategic, scientific, psychological, social, economic, Etc These types are those which he referred to as a statement or hint in his boock: The Miracles of the Quran and the prophetic prophecy, but Rafii considered theses faces a miracle on the whole and were not authentic and conclusive in the case of miracle, especially at the time of downloading, but the miraculous face of truth, The revelation of the Koran is the miraculous graph.

keywords; Mostafa Sadeq Rafii, miracles, holy Quran, Quran miracle.

1. مقدمة:

حفز الإعجاز القرآني العلماء إلى معرفة سره، وإدراك وجهه، والوقوف على أسسه، فكانت لهم في ذلك آراء متعددة، وجهات نظر مختلفة، يدركها من تتبع التدرج التاريخي في بناء فكرة الإعجاز، وكان من أواخر من تطرق لمسألة الإعجاز في القرآن الكريم في العصر الحديث، وتعرض لها

[1] المؤلف المرسل: عزيزو ياسين.

بالتفصيل والبيان، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " الذي جمع فيه آراء الأولين والآخرين في هذه القضية، وناقشها بطول بال وروية، مستعينا على ذلك بما مُنِح من حجة وبيان، وما صح من دليل برهان، ليَصدُرَ. بعد ذلك . عن رأيه في الإعجاز، ويستدل على قوله بما سنح له من الأدلة والمستندات، وتتجلى أهمية هذا الموضوع، كونه متعلقاً بأهم مصدر في التشريع الإسلامي على الإطلاق، وأصح كتاب فيه بالاتفاق، كما أن مسألة الإعجاز لفتت نظر العلماء في مختلف الأزمنة والأمكنة، ولا زال الدرس قائما عليها، والمدد لا ينقطع من سيلها، لأن القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا تأفل فوائده، وهذا ما يفتح آفاق البحث فيه والتعرض له بالدراسة المرة تلو الأخرى، كما أن قامة علمية، وكفاءة أدبية، مثل مصطفى صادق الرافعي لحَرِيَّة بأن تُتَناول أعمالها بالدراسة، وتقام عليها الأبحاث والأطروحات بحثا وتحليلا، لأن أعماله حافظت على اللغة الفصيحة، والفكرة عميقة، من أجل كل هذا وغيره، وقع الاختيار على هذا الموضوع، فمن هو الرافعي؟ وما أبرز آثاره العلمية والأدبية؟ وما هي وجهة نظره في الإعجاز؟ وإلى أي مدى تبلغ أهمية الإعجاز في تخليد القرآن الكريم، وإبقاء ذكره؟ وما هي وجوه الإعجاز عند الرافعي؟

. التعريف بـ: "مصطفى صادق الرافعي"

1.2 اسمه:

هو أبو السامي مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرازق الرافعي الفاروقي العمري الطرابلسي، شاعر الحسن المجنون، وأديب الشرق المفتون، ونابغة البيان، وزهرة شعراء العربية، إمام وحجة العرب،[1] والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي، رئيس المحاكم الشرعية آنذاك في كثير من المدن المصرية، وهو واحد من أحد عشر أخا اشتغلوا كلهم بالقضاء، وكان ورعا زاهدا شديدا في الحق، ما سلط عليه سخطا من أهل عصره، وأمه سورية الأصل، أبوها الشيخ الطوخي، وقد تزوجت من الشيخ عبد الرزاق وأقامت معه في بهتيم من قرى القليوبية بمصر.[2]

2.2 مولده ونشأته:

ولد بهتيم[3] في أول رجب الأصم سنة 1298 هـ الموافق لمنتصف كانون الثاني . يناير 1881م، حيث كانت أمه السيدة أسماء قد آثرت أن تكون ولادتها الثانية في دار أبيها الشيخ أحمد الطوخي التاجر الحلبي الذي كانت قوافله تسير بالتجارة بين مصر والشام، على الرغم من أن الرافعي نال الشهادة الابتدائية . وهي كل ما حصل عليه من الإجازات الدراسية . ومعرفته لا بأس بها باللغة الفرنسية، فإن أثر ثقافة أسرته والمناخ النفسي والاجتماعي الذي نشأ فيه، جعله أقرب إلى مزاج الأدباء المطلعين غي التراث العربي دون غيره، وقد أعان على تأصيل هذا المزاج قراءته الباكرة فيما ضمته مكتبة والده من كتب دينية في الأغلب الأعم، وقد استمع الرافعي في سن العاشرة أو بعد ذلك بسنة أو سنتين إلى والده، وحفظ القرآن، وذلك قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية بدمنهور ثم المنصورة، كل هذا مجتمعا يحدد لنا المناخ الذي عاش فيه الرافعي، ومن هنا ندرك تطلعه إلى أن يكون كاتب العرب والإسلام.[4]

3.2 شعره:

قال محمد سعيد العريان محللا لشخصيته الشعرية، وعقليته الاستثنائية، في كتابه حياة الرافعي: (كلف بالشعر من أول نشأته، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعرا كبعض من يعرف شعراء العربية، أو خيرا من شعراء العربية ...، وكان واسع الأمل، كبير الثقة، عظيم الطموح، كثير الاعتداد بالنفس، ومن ثم نشأ جبارا عريض الدعوى، طويل اللسان من أول يوم...)،[5] حينما نتأمل هذه الأوصاف نربطها مباشرة بشاعر معروف من التراث، كانت له نفس هذه الصفات، إنه المتنبي، الذي شاعرا حكيما، وشخصية فذة، وهكذا كان الرافعي، وبذالك وصفه محمد سعيد العريان مرة أخرى: (وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير، وبما في أعصابه من دقة حس وسرعة استجابة لما تنفعل به . بكل أولئك . تهيأ لأن يكون كما أراد، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية...).[6]

4.2 نثره:

بلغ الرافعي فيه مبلغه بعد سنة 1905م، وأصبح شاعرا فذا لا يشق له غبار، فاتجه بعد ذلك نحو النثر والإنشاء لعله يبلغ فيه مبلغه من الشعر، وكان ذلك حاصلا، فترك كتابات عديدة، وصفها عبد العزيز المقالح في كتابه "عمالقة عند مطلع القرن" يقيم فيه ما ألفه الرافعي مثريا الأدب العربي، فقال:(من خلال استقرار حياة الرافعي وإطالة الوقوف أمام آثاره الأدبية ندرك مقدار الرضا والشعور بالانسجام مع الموقف الأدبي الذي اختار أن يجده في حياته بالرغم مما كان يسبب له من منغصات الآلام ومن مثيرا الشجون)،[7] كما لعبت نشأته وتكوينه العلمي والأسري فيه دورا كبيرا، هذه الخلفية هي التي بنا عليها أفكاره التي دافع عليها طوال حياته، وقد تميز أسلوبه بسمات وأوصاف خاصة ، من أبرزها:

أ . وضوح المعنى وبساطة التعبير.

ب . لغة متجددة الألفاظ والأسلوب، وبراعة في وضع أسلوب خاص به وحده، وتوسع في مذاهب العربية ومراعاة للأوزان وطبيعة وقواعد النحو.

ج . مراعاة تناسب التراكيب وموسيقاها، والتركيز عليها أكثر من العناية بالألفاظ.[8]

من أهم ما ألف في النثر:

أ . تحت راية القرآن: أراد من خلاله أن يفك المعركة القائمة بين القديم والجديد، وهو كتاب فيه تبيان للمغالطات التي روج لها "المجددون" في عصره، وهو في الأصل مجموعة من المقالات كان ينشرها في الصحف في أعقاب خلافه مع طه حسين الذي احتل كتابه: في الشعر الجاهلي معظم الصفحات في الكتاب.

ب . وحي القلم: وهو مجموعة من المقالات النقدية والإنشائية المستوحاة من الحياة الاجتماعية المعاصرة والقصص والتاريخ الإسلامي المتناثرة في العديد من المجلات المصرية المشهورة في مطلع القرن الماضي مثل: الرسالة، والمؤيد، والبلاغ، والمقتطف، والسياسة، وغيرها.

ج . حديث القمر: هو ثاني كتبه النثرية، وقد أنشأه بعد عودته من رحلة إلى لبنان عام 1912م، عرف فيها شاعرة من شاعرات لبنان " مي زيادة "، وكان بينهما حديث طويل، فلما عاد من رحلته أراد أن يقول فكان "حديث القمر".

د . كتاب المساكين: وهو كتاب قدم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني، في محاولته هذه وجد الرافعي في واقع القرية المصرية خير وجه ليبين لنا ويحلل ظاهرة الفقر والغنى.

هـ . رسائل الأحزان: تكلم فيها عن فلسفة الحب ولوعاته، والعشق ومطباته، وما يكون في الحب من حزن لفوات المحبوب وفراقه، فكان كتابا عامرا مشاعر العشق، يحكي عن الحب وما فيه من حرية ورق.

و . السحاب الأحمر: جاء بعد كتاب رسائل الأحزان، وهو يتمحور حول فلسفة البغض، وطيش القلب، ولؤم المرأة.

ز . على السفود: وهو كتاب لم يكتب فيه اسم الرافعي، وإنما رمز إليه بعبارة إمام من أئمة الأدب العربي، وهو عبارة عن مجموعة مقالات في نقد بعض نتاج العقاد الأدبي.

ح . تاريخ الأدب العربي: وهو كتاب في ثلاثة أجزاء، جزء منه الكتاب الذي هو محل هذه الدراسة، وسيأتي التعريف به في المطلب الثاني من هذا المبحث.

5.2 وفاته:

بعد كل هذا العطاء الأدبي والفكري، أخذت المنية الرافعي، وقد فصل القصة كمال نشأت بقوله:(استيقظ الرافعي فجر يوم الاثنين 10 مايو عام 1937م فتوضأ وصلى، وجلس يقرأ بعض آيات القرآن الكريم، وأحس باضطراب في معدته، وكان ابنه الدكتور محمد قد استيقظ، فشرح له ما يحس به، فأعطاه ابنه دواء، وطلب منه أن ينام، وبعد ساعتين قام الرافعي، وبينما كان في طريقه إلى الحمام، سقط في البهو، وهرع أهله مذعورين ليجدوه قد أسلم الروح)،[9] ثم قال: (وقد دفن عصر هذا اليوم جوار أبويه في المقبرة الرافعي بطنطا، ولم يشيعه إلا عشرات من زملائه الموظفين في محكمة طنطا وبعض جيرانه).[10]

3. تعريف المعجزة وشروط الإعجاز:

1.3 الحقيقة اللغوية:

بالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن أصحابها كعادتهم يشققون الكلام في تعداد معاني الكلمة بعد ذكر أصل مادتها وتصريفها وسياقات كلام العرب فيها وقتَ الاحتجاج، وكلمة المعجزة والإعجاز ليست بدعا من هذا كله، وقد جمعها ابن فارس في مقاييسه بقوله: (عجز: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخَّر الشيء).[11]

2.3 الحقيقة الاصطلاحية:

تطرق علماء العقيدة والكلام لمسألة المعجزة في كتبهم وأبحاثهم، سواء في مؤلفاتهم التقليدية العتيقة، أو الحديثة المعاصرة، ومما جاء في هذا الباب ما أورده البيجوري في حاشيته على متن السنوسية حين تعرض أبو عبد الله السنوسي لما يجب ويستحيل في حق الرسل . عليهم السلام . فقال: (لو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره تعالى لتصديقه تعالى لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني)،[12]

فعرَّف البيجوري في حاشيته المعجزةَ بقوله: (أي: التي هي الأمر الخارق للعادة بقيد أن يكون بعد الرسالة بخلافه قبلها فإنه إرهاص، أي: تأسيس له)،[13] والملاحظ على هذا التعريف أن صاحبه بعد ذكر قيد " الخرق للعادة "، ركّز على قيد أن تكون المعجزة في مرحلة ما بعد الرسالة كي يصح إطلاق اسم المعجزة عليها، ليفرق بينها وبين الإرهاصات التي تكون قبل النبوة، وجاء في قسم الثاني من كتاب كبرى اليقينيات الكونية لمحمد سعيد رمضان البوطي المسمى بقسم النبوات، عنوانٌ وسَمَه المؤلف بـ: "المعجزات"، عرَّف فيه المعجزة وشرح فيه التعريف شرحا استغرق فيه جميع قيود التعريف، وأتى في التعريف بنصه وفصه: (هي أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يبين صدق دعواه).[14]

4. تعريف إعجاز القرآن:

ذهب كثير من العلماء والباحثين إلى عدم قدرة تعريف القرآن بالقيود المنطقية، خاصة إذا أُريد ذلك بالحدِّ الحقيقي، وفي هذا المعنى سار مناع القطان في كتابه "مباحث في علوم القرآن" بقوله: (والقرآن الكريم يتعذَّر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حدّاً حقيقياً، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو " بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين" إلى قوله: " من الجمة والناس")،[15] إذن: فلا يمكن تعريف القرآن تعريفا معبرا عنه بالألفاظ اعتمادا على القيود المنطقية، ولكن ذكروا العلماء تعريفا يقرب المعنى، ويميّز المغزى، فعُرِّف بقولهم: (كلام الله، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته)[16] وزاد بعضهم قيد كونه : (المعجز بأقصر سُوَرِه).[17]

بتعريف القرآن، ومن قبله تعريف الإعجاز، يمكن لنا أن نتطرق لتعريف إعجاز القرآن، فعُرِّف بـ:(عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحدِّيهم، وتقرير عجزهم عن ذلك)،[18] والملاحظ أن قيود هذا التعريف مطابقة تماما لشروط المعجزة . السالفة الذكر. وهذا ما يثبت عجز العالمين . إنسهم وجِنَّهم . على أن يعارضوا القرآن ولا أن يأتوا بحرف مثله، والتحدّي لازال قائما، وهذا الأمر يقود إلى الكلام عن مراحل تحدي القرآن العظيم للعرب والناس، وهذا التحدي جاء في صورة آيات قرآنية أقامت التحدي أولا، قم قررته ثانياً، ثم أكَّدَتْه ثالثا، ولا زال التحدي قائما بكلام قديم أزلي يبقى إلى الأبد.

5. وجوه الإعجاز عند الرافعي من خلال كتابه : " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "

ذهب كثير من العلماء والباحثين إلى عدم قدرة تعريف القرآن بالقيود المنطقية، خاصة إذا أُريد ذلك بالحدِّ الحقيقي، وفي هذا المعنى سار مناع القطان في كتابه "مباحث في علوم القرآن" بقوله: (والقرآن الكريم يتعذَّر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حدّاً حقيقياً، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو " بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين" إلى قوله: " من الجمة والناس")،[19] إذن: فلا يمكن تعريف القرآن تعريفا معبرا عنه بالألفاظ اعتمادا على القيود

المنطقية، ولكن ذكروا العلماء تعريفا يقرب المعنى، ويميّز المغزى، فعُرِّف بقولهم: (كلام الله، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته)[20] وزاد بعضهم قيد كونه : (المعجز بأقصر سُوَرِه).[21]

بتعريف القرآن، ومن قبله تعريف الإعجاز، يمكن لنا أن نتطرق لتعريف إعجاز القرآن، فعُرِّف بـ:(عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحدِّيهم، وتقرير عجزهم عن ذلك)،[22] والملاحظ أن قيود هذا التعريف مطابقة تماما لشروط المعجزة . السالفة الذكر. وهذا ما يثبت عجز العالمين . إنسهم وجِنَّهم . على أن يعارضوا القرآن ولا أن يأتوا بحرف مثله، والتحدّي لازال قائما، وهذا الأمر يقود إلى الكلام عن مراحل تحدي القرآن العظيم للعرب والناس، وهذا التحدي جاء في صورة آيات قرآنية أقامت التحدي أولا، قم قررته ثانياً، ثم أكَّدَتْه ثالثا، ولا زال التحدي قائما بكلام قديم أزلي يبقى إلى الأبد.

وجوه الإعجاز عند الرافعي من خلال كتابه : " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "

إن أي كاتب أو مؤلف يبدأ كتابه بذكر مقدمات في العلم المقصود بالكلام، ويذكر ما يحيط به من علوم مساعدة، قضايا وتأريخات معضدة، ليجلي موضوعه، ويظهر القوة في أسلوبه، وهذا الذي كان من الرافعي في كتابه، المسمى: " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "، فقد أتى بمقدمات في علوم القرآن، وسرد جانبا من تاريخه، كما كان له وقفة من بعض المسائل المعروفة في القراءات والحروف السبعة وجمع القرآن وما عطف عليها من القضايا التي ذكرها العلماء في مصادرها المعروفة،وهو الذي أشار إليه فضل عباس بقوله: (بدأ هذا الكتاب بكلمة رصينة جزلة عن القرآن الكريم، ثم تحدث عن علوم القرآن الكريم: نزوله وجمعه وقراءاته، وعير ذلك من موضوعاته، وأخذت هذه نا يقرب من نصف الكتاب...).[23] كما أن الرافعي لم يترك مناسبة في الكتاب إلا أظهر فيها موقفه، ولم يفوت فرصة إلا اقتنصها ليخدم موضوعه، وقد اجتهدت على استنباط هذا الملمح عند دراسة منهج الرافعي في الإعجاز، لأن بعض الباحثين غضَّ الطرف عنه أو لم يلفت النظر إليها أصلا، مع إقرار بعضهم بمُدخليته في الإعجاز، وإن لم يكن له دخل مباشر فيه، مثل ما أقر بذلك عبد الكريم الخطيب بقوله: (فلقد كان للرافعي اتجاهات كثيرة في هذا البحث الذي أداره حول الإعجاز، إذ عرض لموضوعات كثيرة لا تتجه اتجاها مباشر إلى الإعجاز، وإن كان لها مسلك إليه ومدخل فيه، كتاريخ القرآن وجمعه وتدوينه، واللغة التي نزل بها، والحروف التي قرئ عليها، وكتأثير القرآن في اللغة، والجنسية العربية في القرآن، وآداب القرآن، ونحو هذا، ونحن إذ نريد رأي الرافعي في الإعجاز فلنقصد إلى موضع هذا الرأي في الكتاب).[24]

أما العناوين التي صدَّر بها الكتاب، والتي اتكأ عليها الرافعي للوصول إلى المراد، واستحضرها خدمة لفكرة الإعجاز، فلا شك أن ذكرَه إياها لم يكن عبثا، ودراسته لها لم تكن هملا، وستُسرد تباعا العناوين التي عالجها الرافعي، فأول عنوان سماه: " القرآن "، وصف فيه القرآن وعرفه، ليُثَنِيَ بفصل أوضح فيه منهجه في الكتاب، ليردف بآخر وسمه بـ " تاريخ القرآن جمعه وتدوينه "، وبعد ذلك عنوان آخر " القراءة وطرق الأداء "، ثم تكلم عن " القراء "، ثم " وجوه القراءة "، ثم " قراءة التلحين "، ثم " لغة القرآن "، ثم " الأحرف "، ثم " مفردات القرآن "، ثم " تأثير القرآن في اللغة "، وبعد ذلك " الجنسية العربية في القرآن "، وبعده " آداب القرآن"، ثم " القرآن والعلوم "، ثم " سرائر القرآن "، ثم " تفسير آية "، باستقراء هذه العناوين يستخلص

مباشرة بأنها مسائل تطرق إليها العلماء في كتب علوم القرآن، لكن القارئ المتبصر، والناظر المتدبر، يجد أن الرافعي في كتابه قد حشد جيش أفكاره منذ البداية ليثبت أحقية القرآن بوسم الإعجاز، وينتصر لهذه الفكرة وينحاز، خاصة إذا أضفنا قرينة سبب التأليف، وما كان بينه وبين العقاد من مساجلات أسفرت عن معارك علمية ضروس، كان من أوزارها هذا الكتاب الذي هو قيد الدراسة والبحث، ولهذا كله كان مبتدأ كلام الرافعي الانحياز لرأيه متأثرا بمحيطه العلمي، وناضحا من إناء تكوينه الشرعي، ليَظْهَر ذلك عليه حين يتحدث عن مسائل تقنية في علوم القرآن، وقضايا مطروقة في كل زمان، لكنه سربلها بروح عصره، وانتصر بها لوجهة نظره، ليقوم باستنباط وجه الإعجاز من كل مبحث تقريباً، سواء كان الاستنباط تلميحا أو تصريحاً.

فمثلا في العنوان الأول الذي صدر به الكتاب، والمسمى بـ: " القرآن "، فإن الرافعي أتى فيه بوصف بليغ للقرآن الكريم، وبيَّن فيه محاولات معارضته والافتراء عليه ليقول بعد ذلك ملمحا لسر الإعجاز في القرآن: (لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون، وظلت آياته تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون).[25]

ففي مطلع كلامه عن حكمة تلقي النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن منجما، ونزوله مفرقا، لم يكتف بإيراد ما هو معروف عند العلماء في الباب، ولم يكرر ما هو مزبور في كل كتاب، بأن ذلك كله كان لتثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، من شدة ما كان يلقاه من زلازل الوحي، بل لفت الأنظار إلى وجْهِ الإعجاز منه، ووجَّه العقول إلى غير السائد من الفهم، فعبَّر قائلا: (...ثم ليكون ذلك أشدَّ على العرب وأبلغ الحجة عليهم وأظهر لوجه إعجازه وأدعى لأن يجري أمره في مناقلاتهم ويثبت في ألسنتهم ويتسلسل به القول).[26]

لينبه الرافعي إلى عامل إعجازي في تدرج نزول القرآن، من مرحلة المكية التي نزلت فيها قصار السور إلى المرحلة المدنية التي نزلت فيها طوال السور، وهذا العامل عامل نفسي استنبطه من هذه المسألة، وهو في قوله حين قال: (وبخاصة إذا اعتبرت أن أكثر ما أنزل في ابتداء الوحي واستمر بعد ذلك من لدن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي حراء فيحنث فيه الليالي، إلى أن هاجر من مكة . إنما هو من قصار السور على نسق يترقى إلى الطول في بعض جهاته، وذلك ولا ريب مما تهيأ فيه المعارضة بادئ الرأي إذا كانت ممكنة، لأنه مفصل آيات، ثم لقرب غايته ممن ينشط إلى معارضته والأخذ في طريقته، دون ما يكون ممتد النسق بعيد الغاية، فتصدف النفس عن جملته الطويلة، ويخلف نشاطه فيه لأن للقوة النفسية حدّاً إذا حملت على ما وراءه كان من طبعها أن تنتهي إلى ما دونه، وهذا أمر يعرفه من يرى شاعرا يعد أبيات القصيدة الرائعة قبل أن يقرأها، أو كاتبا ينظر في أعقاب الرسالة الجيدة ولما يأخذ في أوائلها، وهلم مما يجري هذا المجرى).[27] ليخلص في ختام عبارته بعد أن ذكر جانبا من مراحل نزول القرآن إلى أن القصد من ذلك إظهار إعجاز القرآن لكل من عارضه، ليقول في هذا النسق: (وإنما هي الحكمة التي أومأنا إليها في مذهب إعجازه).[28]

أما مسألة القراء وطرق الأداء، وقد جعلها الرافعي بوابة يدخل منها إلى لغة القرآن، ومنه الكلام على الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، فقال: (وهذا الفصل مما نتأدى به الكلام به إلى كلام في لغة القرآن، فهو سبيلنا إليها في نسق التأليف، إذ القراءة والأداء أمران يتعلقان باللفظ ويبنيان على وجوة اللغة التي قام بها)،[29] ثم يبيّن لنا الرافعي وجه الإعجاز في القراءات القرآنية، ومدى عجز الفطرة اللغوية أمام هذا التنوع اللفظي والمعنوي

والحُكْمي الذي أسفر عنه الاختلاف في القراءات، ليعبّر موضحاً: (وإذا تمَّ هذا النظم للقرآن مع بقاء الإعجاز الذي تحدَّى به، مع اليأس من معارضته، على ما يكون في نظمه من تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يلائم تلك الأحوال في مناطق العرب، فقد تمَّ له التمام كله، وصار إعجاز إعجازاً للفطرة اللغوية في نفسها حيث كانت، وكيف ظهرت، ومهما يكن من أمرها: ومتى كان العجز فطريا فقد ثبت بطبيعته، وإن لجَّ فيه الناس جميعاً، لأنه شيء في تلك الفطرة يفهم منه صريحاً ثم لا تنكر هي موضعه منها وموقعه وإن كابرت فيه الألفاظ وبالغت الأهواء في جحده والانتفاء منه مراء ومغالبة).[30]

ليربط الرافعي . من طرْفٍ خفي . أسباب وجود القراءات بالإعجاز القرآني، ليثبت . قبل ذلك . أن السبب الأول الذي من أجله اختلفت القراءات: كي تعجز فطرة العرب اللغوية أن تجاري البلاغة الفصاحة القرآنية، وهو الذي صرَّح به بقوله: (ثم لا يستقيم للعرب أن يعارضوا القرآن، إذ كان مأتى العجز من فطرتهم اللغوية، ولا يتوهم ذلك وإن انتشرت لهم في الخلاف قالة [31])،[32] وبعد هذا القيل منه، يسترسل الرافعي في ذكر الحكمة من وجود القراءات، والحكمة الثالثة لها علاقة بموضوع الإعجاز، بحيث إنه نوه بالاختلاف في القراءات الذي أثرى معاني القرآن، التي فتحت حلولا لكثير من المشاكل التشريعية والأخلاقية واللغوية، وهذا هو نص قوله في المسألة: (وثالثة[33] تلحق بمعاني الإعجاز، وهي أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معاني الشريعة، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد، وهذا المعنى مما انفرد له القرآن الكريم، ثم هو مما لا يستطيعه لغوي أو بياني في تصوير خيال فضلاً عن تقرير شريعة).[34]

وتحت عنوان: " لغة القرآن " قرر الرافعي أصالة لغة قريش في القرآن، مع وجود بعض الاستعمالات المنزورة بالنسبة للغات الأخرى، وهذا بديهي معروف، لكن الرافعي خلُصَ إلى نوع جديد من الإعجاز في اختيار هذه اللغة، وهو إعجاز سياسي واستراتيجي، جعل القرآن ممكن الفهم والقبول من جميع قبائل العرب على اختلاف لهجاتها، وتنوع لغاتها، بل ومعجز لهم جميعا، لأن لغة قريش هي غاية الفصاحة عندهم، ومنتهى البلاغة لديهم، وهي المرجع الأساسي لكل العرب، فقال الرافعي في هذا الصدد: (وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم، فإن القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي، ثم كانوا لا يعادون في اعتبارهم إياه من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات، كالسحر والكهانة وما إليهما وهو الذي افترته قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ساحر، كاهن، وشاعر، ومجنون، وتَقَوَّلوا من أمثال ذلك يبتغون به أن يحدثوا في قلوب الناس لهذا الأمر خفة الشأن، وأن يهونوا عليهم منه بما هونته العادة)[35] ثم يوَضِح الرافعي سبب كلامه عن إعجاز لغة قريش، لنجد أن أحدهم استفَزه بإنكار هذا الإعجاز، وساجله في هذه القضية أيَّما سجال، فكان لابد من ردٍّ على هذا الزعم، وأن يكون مرتكز هذا الردّ العقل والمنطق والعلم، فقال موَضِحاً لموقف الخصوم، وعارضا ما ألقوه بين يديه من مستندات وفهوم، ليعلق الرافعي على هذه المزاعم بطريقته المعروفة عنه، فقال: (وإنما وطَّأنا بهذا النُبَذِ من القول لأن طائفة من الناس يذهبون إلى أن القرآن لو هو قد نزل على النبي صلى الله عليه وسلَّم بغير القريشية، لكان ذلك وجها من إعجازه تلتمس به الحجة ويستبين الظفر، ولخلى عنه العرب فترة وعجزاً، وهو زعم لا يقول به إلا أحد رجلين: من يدري كيف يقول، أو من يقول

ولا يبالي أنك مطلع منه على جهل وسفه)،[36] ثم تابع الرافعي هدمه لنظرية هؤلاء الناس، مستدلا على ذلك بما جادت به قريحته من الأدلَّة والبراهين، فقال: (ولما كان الوجه الذي أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة، فقد كان من إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعاً، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش، وهذه اللغات وإن اختلفت في اللحن والاستعمال، إلا أنها ننفق في المعنى الذي من أجله صار العرب جميعاً يخشون للفصاحة من أي قبيل جاءتهم،وهذا المعنى هو مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة، ثم ملاءمتها للكلمة التي بإزائها، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه حتى يكون كالنغم الذي يصب في الأذن صبّاً، فيجري أضعفه في النسق مجرى الأفواه، لأن جملته مفرغة على تناسب واحد).[37]

إذن: استناداً على هذه الأدلة التي قدَّمها الرافعي وغيرها، يوَصِّل الرافعي للمتلقي فكرة مفادها: أن القرآن معجز استنادا إلى مادته التي عَّبر بها، وهي لغته التي تنتسب إلى قريش، وهذه الأخيرة حوت عوامل إعجازها بمعزل عن القرآن، فكيف بها وقد اصطبغت بروح الربانية، واستندت على القوة الإلهية، وبُلِّغت من رقي الروح المحمدية، فلابد أن يكون الإعجاز مبهراً للبشرية، كما طرق الرافعي إلى آداب القرآن، وأراد بمصطلح الآداب ما أرشد إليه القرآن من أحكام والأخلاق التي راعت الجانب الإنساني، واصطلح الرافعي على نتاج القرآن في هذا المجال بمصطلح " الإعجاز الأدبي "، وعادل بينه وبين الإعجاز السياسي الذي ساس به العرب، والذي أشار إليه بقوله: (ونحن الآن تلقاء نوع آخر من الإعجاز الأدبي، وهو ضريب تلك المعجزة السياسية التي أومأنا إليها في الفصل المتقدم...)،[38] هذا الإعجاز الذي زعم فيه الرافعي أنه راعى الإنساني، ورجع إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها في الأزل، وبمقتضاها جاءت أحكام الشرع، وهذا قوله مفصح عن هذه الحقيقة: (فإن آداب هذا الكتاب الكريم إنما عي آداب الإنسانية المحضة في هذا النوع أنى وجدت وحيث تكون...)،[39] وبعد مقالة طويلة أثبت فيها بالأدلة الحسية والمعنوية عن إنسانية الأخلاق من حيث الأصل والمبدأ، أوضح الرافعي المقصد الذي يرمي إليه القرآن حين طرق موضوع الأخلاق، مدعيا أنه لم يزغ عن سياق الإنسانية في طرحه لها، ولم يَحِدْ عن مراعاة صوت الفطرة في الإنسان، فمبعث الآداب القرآنية الاعتقاد الراسخ،حيث قرر قائلا: (من أجل ذلك كانت آداب القرآن ترمي في جملتها إلى تأسيس الخلق الإنساني المحض الذي يضعف معه الضعيف دون ما يجب له، ولا يقوى معه القوي فوق ما يجب له، والذي يجعل الأدب عقيدة لا فكراً إذ تبعث عليه البواعث من جانب الروح، ويجعل وازع كل امرئ في داخله فيكون هو الحاكم والمحكوم، ويرى عين الله لا تنفك ناظرة إليه من ضميره).[40]

وحين تحدث الرافعي عن القرآن والعلوم، أوضح الإطار الزمني والمكاني لمعجزة القرآن الكريم، وأثبت أن التاريخ لم يخلد معجزة القرآن على المستوى الإقليمي لجزيرة العرب، بل إن التاريخ العلم مجد وخلد آثار القرآن عالميا، وهذا الذي عناه بقوله: (وللقرآن وجه اجتماعي من حيث تأثيره في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن قبل إلا سببا، فإن في الحق ما يسع الأشياء وأسبابها جميعا)،[41] وقد حشد الرافعي أدلته لإثبات إعجاز القرآن للعرب من حيث العلم، فذكر جانبا من العلوم التي تطرق إليه القرآن، والتي ليس للعرب بها إحاطة ولا علم، ولم يكن لهم بها خُبْرٌ ولا فهم، فقال: (وأما إن هذا القرآن معجزة العربي خاصة وأصل النهضة الإسلامية، فذلك بيِّنٌ من كل وجوهه، غير أننا

سنقول في الجهة التي تتصل بنشأة العلوم، إذ هي سبيل ما نحن فيه من هذا الفصل، وقد أومأنا إلى بدء تاريخ التدوين العلمي وبعض أسبابه في باب الرواية من الجزء الأول من تاريخ آداب العرب، فنقتصر هنا على موجز من أسباب النشأة العلمية).[42]

4. خاتمة:

1) تطرق الرافعي لمقدمات في علوم القرآن وتاريخه وجمعه ... الخ، قدم بها بين يدي حديثه عن موضوع الإعجاز القرآني، لكن اللافت فيما فعله الرافعي أنه استغل كل مبحث منها ليربطه بالإعجاز القرآني، ويستنبط منه وجهاً من وجوهه، وبهذا فإن الرافعي سربل كل كتابه بالحديث عن الإعجاز.

2) ابتدأ الرافعي كلامه عن الإعجاز في القرآن الكريم بذكر الجانب التاريخي لمسألة الإعجاز، حرر فيها أقوال العلماء في الإعجاز وأبرز ما كتب في الموضوع قديما وحديثا، ثم عرج على بيان حقيقة الإعجاز.

3) أقر الرافعي بتعدد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ما بين إعجاز تاريخي واستراتيجي وعلمي ونفسي واجتماعي واقتصادي...الخ، وهذه الأنواع هي التي أشار إليها تصريحاً أو تلميحا في المقدمات التي جعلها في علوم القرآن، لكن الرافعي اعتبر هذه الوجوه معجزة على العموم ولم تكن أصيلة وفاصلة في قضية الإعجاز خاصة في وقت التنزيل، وإنما الوجه المعجز على الحقيقة والذي خضعت له الرقاب حال نزول القرآن هو الإعجاز البياني.

4) يرى الرافعي أن أسلوب القرآن في تعبيره اللغوي، هو أسلوب معجز مع وجود اتحاد مادة الإعجاز العربي التي استوت بين القرآن الكريم وكلام البشر، وهذا الأمر هو الذي جعل العرب تلجم أفواههم، وتسفه أحلامهم، وهو أهل المنطق والأحلام، هذه المفارقة هي التي جعلت من القرآن معجزة جمعت خرق هذه العادات، التي لم يخطر للعرب أن تنافح ولا أن تنافس.

5) وأشار الرافعي إلى شمولية تأثير النظم القرآني في الإعجاز القرآني في جميع مستوياته، وذلك ظاهر في عناصر الكلام العربي الذي تتكون منه الآية القرآنية، من حروف وكلمات وجمل.

5. الهوامش:

[1] مصطفى نعمان البدري، الإمام مصطفى صادق الرافعي، قدم له: محمد بهجة الأثري، مطبعة جامعة بغداد، ص 209

[2] محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر، ط 3، ص 27

[3] بهتيم: أحدث قرى محافظة القليوبية، وهي محافظة قريبة من القاهرة.

[4] المرجع نفسه، ص 7

[5] محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، ص 43

[6] المرجع نفسه، ص 43

[7] عبد العزيز المقالح، عمالقة عند مطلع القرن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 1، 1404هـ/1983، ص 123

[8] بن نعوم سعاد، أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الرافعي، رسالة ماجستير، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2015/2014، ص 161

[9] كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي،ص 26

[10] المرجع نفسه، ص 26

ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، اعتنى به: محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، ص 712 [11]

أبو عبد الله السنوسي، متن السنوسية، دار الإحياء الكتب العربية، مصر، حاشية البيجوري، الهامش تقرير شمس الدين الأنباري، ص 39 [12]

المرجع نفسه، ص 39 [13]

محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق وظيفة المخلوق، دار الفكر، بيروت . دمشق، ط 31، 1431هـ/2010م، ص 214 [14]

مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 35، 1418هـ/1998م، ص 20 [15]

المرجع نفسه، ص 20 [16]

مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، المحرر في علوم القرآن، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، الرياض، ط 2 ، 1429هـ/ 2008م، ص 22 [17]

صلاح عبد الفتاح الخالدي، الإعجاز البياني ودلائل مصدره، ص 17 [18]

مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 35، 1418هـ/1998م، ص 20 [19]

المرجع نفسه، ص 20 [20]

مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، المحرر في علوم القرآن، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، الرياض، ط 2 ، 1429هـ/ 2008م، ص 22 [21]

صلاح عبد الفتاح الخالدي، الإعجاز البياني ودلائل مصدره، ص 17 [22]

فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص 95 [23]

عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 328 [24]

مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تحقيق: محمد سعيد العريان، الصحوت للنشر، القاهرة، ط1،1415هـ/2015م، ص 33 [25]

المرجع نفسه، ص 34 [26]

المرجع نفسه، ص 34 [27]

المرجع نفسه، ص 35 [28]

المرجع نفسه، ص 35 [29]

الرجع نفسه، ص 45 [30]

القالة والمقالة بمعنىً واحد. [31]

المرجع نفسه، ص 46 [32]

أي: وحكمة ثالثة. [33]

المرجع نفسه، ص 46 [34]

المرجع نفسه، ص 59 [35]

المرجع نفسه، ص 60 [36]

المرجع نفسه، ص 60 [37]

المرجع نفسه ، ص 85 [38]

المرجع نفسه، ص 85 [39]

المرجع نفسه، ص 89 [40]

المرجع نفسه، ص 104 [41]

المرجع نفسه، ص 105 [42]